مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 10 عدد: 2 السنة: 2021
ص: 677 - 695 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

جمالية فن الترسل الشعري في الأندلس

The beauty of the art of poetic transmission in Andalusia

د.ابتسام دهينة*

Ibtissem dehina

جامعة محمد خيضر بسكرة الجزائر

University Mohamed khider biskra.algeria

dhina-dehina@outlook.fr

تاريخ الإرسال:2020/11/04	تاريخ القبول:2020/12/23	تاريخ النشر: 2021/06/02

ملخص البحث

فن الترسل في الأساس ما هو إلا وسيلة للتعبير والتواصل، ولكنه أخذ منحا جماليا في البدء انطلق من النثر ثم عرج في شكل تجديدي في مجال الشعر ، وهذا موضوع حديثنا إذ سنقف في هذه الورقة البحثية على معالم فن الترسل الشعري وجمالياته مقارنة بالنثر، فهل شروط الترسل النثري، ومقوماته هي ذاتها شروط الترسل الشعري، وفيم تكمن أسسه الفنية هذا الأخير وما هي شروطه وموضوعاته؟

الكلمات المفتاح : فن الترسل، الشعري، الأسس، الشروط، الموضوعات .

Abstract ;

The art of transmission is basically a means of expression and communication, but it took an aesthetic turn. At the beginning, it started from prose and then stopped in a regenerative form in the field of poetry. We will stand in this research paper on the features of the art of poetic transmission and its aesthetics compared to prose. So are the conditions for transmission in prose, and its components the same as the conditions for poetic transmission? what are its artistic foundations , and what are its conditions and themes?

Key words : The art of transmission, Poetic, Foundations, Conditions , Themes

* ابتسام دهينة:dhina-dehina@outlook.fr

تمهيد:

فن الترسل أسلوب من أساليب النثر لمخاطبة البعيد، وقد تطور هذا الفن وازدهر عبر العصور بدءا بالعصر الجاهلي إلى أن استوى في العصر الأموي والعصر العباسي ، وذلك بسبب تعقد أمور الدولة وتشابكها.فكانت حاجة الدولة إلى كتاب يتقنون هذا الفن ، لتعيينهم في الدواوين بأنواعها المختلفة، هذا ما دفع الكتاب إلى التنافس فيما بينهم محاولة منهم في التفوق في الكتابة وإتقان أصولها.والترسل في الأساس ما هو إلا وسيلة للتعبير والتواصل، ولكنه أخذ منحا جماليا في البدء انطلق من النثر ثم عرج في شكل تجديدي في مجال الشعر ، وهذا موضوع حديثنا إذ سنقف في هذه الورقة البحثية على معالم فن الترسل الشعري وجمالياته مقارنة بالنثر، فهل شروط الترسل النثري، ومقوماته هي ذاتها شروط الترسل الشعري، وفيم تكمن أسسه الفنية هذا الأخير؟

أولا: اللغوي والاصطلاحي:

1–لغة:

يقال في اللغة:ترسل في قراءته إذا اتأد وتمهل وتوقر فيها أو رتلها، والترسل في الكلام ،التوقر والتفهم، والترفق من غير أن يرفع المرء صوته شديدا. والترسل في القراءة والترسيل واحد وهو التحقيق بلا عجلة،وهذا ما ورد في كتاب البرهان في وجوه البيان لابن وهب .فيقول:" الترسل من ترسلت أترسل ترسلا وأنا مترسل ،كما يقال توقفت بهم أتوقف توقفا وأنا متوقف ولا يقال ذلك إلا فيمن تكرر فعله في الرسائل (...) وأرسل يرسل إرسالا وهو مرسل والاسم الرسالة ، أو راسل يراسل مراسلة وهو مراسل وذلك إذا كان هو ومن يراسله قد اشتركا في المراسلة ، وأصل الاشتقاق من ذلك أنه كلام يراسل به من بعيد فاشتق له اسم الترسل والرسالة من ذلك"[1].

فالترسل جاء بمعنى الإكثار والتفرغ لهذا الفعل /فعل الكتابة بالمشاركة بين الطرفين، وهذا ما يكون عادة في تسيير شؤون الحكم آنذاك. والترسل مصدر أنشأ رسالة، وأيضا بمعنى أتى كلامه مرسلا غير مقيد بقافية أو سجع، وهو فن إنشاء الرسائل.

وفي لسان العرب وردت الكلمة بمعنى:1- رسل الرسل أي القطيع من كل شيء، والجمع أرسال..والرسل الإبل قطيع بعد قطيع، والإرسال التوجيه[2]، وقد وردت الكلمة في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة مريم الآية83: ((**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**))،

فكلمة رسل جاءت بمعنى التسليط و التوجيه[3] ، و"استرسلت إلى الشيء إذا انبعثت نفسك إليه وأنست، والمرسلات الرياح"[4] وتحمل دلالات متعددة بحسب السياق.

2- اصطلاحا:

أما في الاصطلاح: لفظة الترسل قديمة في جذورها وهي مرتبطة في الأساس بعملية التدوين وبوجود الخط والكتابة فلا يمكن لأي إنتاج شفوي أن يبقى ويخلد إن لم تكن هناك كتابة وتدوين، وتوضحت معالمها في القرنين الرابع والخامس الهجريين[5] ، بمعنى كتابة الرسائل وبالتالي كانت أقدم إشارة صريحة إلى هذا الاستعمال بهذا المفهوم الاصطلاحي ومن ذلك ما ورد عند ابن وهب في القرن الرابع الهجري كما سبقت الإشارة.أما في القرن الخامس الهجري فقد دل المصطلح على كتابة الرسائل، وهذا ما ذكره المرزوقي"الترسل هو كتابة الرسائل، إذا كان مورده على أسماع متفرقة من خاصي وعامي، وأفهام مختلفة من ذكي وغبي، وللمترسل أمور لابد مراعاتها منها تبيين مقادير من يكتب عنه وإليه حتى لا يرفع وضيعا ولا يضع رفيعا، وان يعلم أوقات الإسهاب والتطويل، والإيجاز والتخفيف فقد يتفق ما يحتاج فيه إلى الإكثار حتى يستغرق في الرسالة الواحدة أقدار القصائد الطويلة ويتفق أيضا ما تغني فيه الإشارة ويجري مجرى الوحي في الدلالة"[6]، والرسائل في منشئها أنواع: الإشارية، والشفوية والكتابية[7].

ثانيا: أنواع الرسائل:[8]

1-الإشارية: وهي تلك التي تقوم على لفت لانتباه بالإيماءات قديما، وحتى الآن كإشعال النار وهو اتفاق مسبق بين الطرفين المرسل والمرسل إليه، وتعد النار خاصة ليلا من أهم الرسائل البصرية، ولذا كان أشراف العرب وأجوادهم يستوقدون نارا هداية للساري ليلا وتسمى نار القرى كرسالة دعوة للسارين ليلا من أبناء السبيل ليتوقفوا للضيافة.

2- الرسائل الشفوية: وظهر قديما تحديدا لتفشي ظاهرة الأمية وغياب ظاهرة التدوين والكتابة إلا في القليل النادر، ومن هنا اتسعت حفيظة الجاهلي فاشتهر بسرعة البديهة والحفظ والرواية خاصة في مجال الشعر وفي ذلك يقول أحمد زكي صفوت:"إن جمهرة العرب في ذلك العصر كانت متبدية، فلم تكن الكتابة فيهم فاشية، ولذا كانوا يعتمدون في مراسلهم على المشافهة"، ولكن الشفاهة وحدها لا تكفي خاصة في مجال النثر فكان لابد من الكتابة والتدوين ، ومن هنا تبدى النوع الثالث من الرسائل وهو الكتابية أو التدوينية.

3–الرسائل الكتابية:وهو النوع الذي ترعرع فيه فن الترسل وازدهر اتكاء على الكتابة وأسسها وظلت تتوارث جيلا بعد جيل تتسم بطابع التداول والذيوع، وهذا ما أسماه صفوت زكي في كتابه بجمهرة أشعار العرب.

الترسل إذن هو ترجمة ما يدور في الذهن من كلام وترجمته إلى كتابة، سواء أكانت على شكل شذارات شعرية أم نثرية وهذا يقودنا إلى أصل الرسالة ونثريتها .

فقدامة يرى:أن الترسل صناعة ومهنة لا يحترفها إلا من رسخت قدمه في الأدب وكان صناعة فضلا عن الصفات كالصدق والنزاهة والإخلاص وما إلى ذلك...ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر"[9]

والترسل في الأدب نوع مشترك بين وجهي الأدب الشعر والنثر، وهذا ما بينه ابن طباطبا حينما بين أن الشاعر يسلك" منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل"[10]. وللرسالة الشعرية عديد التسميات قد لا تسمى بها النثرية منها.

رابعا مسميات أخرى للرسالة الشعرية:

- **الرسالة.** ⟵ **الرسول هذا المعنى المتعارف عليه.**
- **المألكة، والمألك، والألوكة،** ⟵ جذر ألك وهي الرسالة، وسميت ألوكا لأنها تِلك في الفم، والألوك هو الرسول،وألك فلان ألكا أي أبلغه الألوك أي رسالة..قال لبيد:

  وغلام أرسلته أمه بألوك، فبذلنا ما سأل
- **المغلغلة.** ⟵ **هي الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد،وأنشد ابن بري:**

  أبلغ أبا مالك عني مغلغلة وفي العتاب حياة بين أقوام
- **والمغلغلة بكسر العين الثانية من الغلغلة سرعة السير(لسان العرب)**
- **الآية.** ⟵ **الأمارة والعبارة.**
- **الملظة.** ⟵ **الرسالة الملحة(المعجم الوسيط)**

والملاحظ أن أكثر هذه التسميات عبارة عن صفات، ومن أسماء الرسالة النثرية نذكر: الرسالة والكتاب، والخطاب والصحيفة، والمكتوب، وغيرها حسب ما ورد عند القلقشندي تأخذ

مسميات أخرى كالكتابة والإنشاء:"فأما كتابة الانتشاء، المراد بها مرجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام، وترتيب المعاني من المكاتبات ..." [11].

لفظة الرسالة في الأساس قد لا تمس المنثور فقط، فهي قد تحمل معنى الخطاب لأنها خاضعة لسياق الحديث ومؤثراته ومؤشراته؛ فقد تكون قطعة نثرية مثلما قد تكون شعرية يدبجها الشاعر في نسق فني ضمن غرض من الأغراض، فتكون بذلك ثمرة هذا الأدب رسالة تنثر وترسل وأبيات تنظم وتفصل تنثال انثيال القطار على صفحات الأزهار، وتتصل هذه اتصال القلائد على نحور الخرائد[12]

فالرسالة في الأساس فن نثري جميل، والمنثور عندهم ما حوى الخطب والرسائل وهما فن واحد أو فنان متقاربان يقابلان الشعر[13]، وهذا ما ذكره صاحب الصناعتين[14]وصاحب الذخيرة[15].

والأمر سيان عند المشرق فقد ربطوا بين الرسالة والخطبة مثلما ربطوا بين الرسالة والقصيدة، فإن **ابن طباطبا العلوي** يحدثنا عن العلاقة بين القصيدة والنثر الذي يقوم عنده مقام الرسالة، فيقول"فمن الأشعار أشعار محكمة أنيقة الألفاظ عجيبة التأليف، وإذا نقضت وجعلت نثرا لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها[16]. فهو **يرى أن الرسالة قصيدة مفكوكة الأوزان، والقصيدة رسالة معقودة** فكلاهما رسالة، لأنه يرى أن الشاعر " يسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل فيحتاج إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنون صلة لطيفة فيتخلص من الغزل إلى المديح،بأفضل تخلص، وأحسن مكانة، بلا انفصال للمعنى الثاني كما قبله، بل يكون متصلا به، وممتزجا معه"[17].

ويرى **ابن خلدون** أن الرسالة هي لسان القوم تعبر عن مقاصدهم[18]دون الإشارة إلى نوع الرسالة، على أساس أن الرسالة قطعة نثرية تنهض بشؤون الدولة الإسلامية وفقا لشروط تشترط في كاتب الرسالة يجب أن تستوفى لتتم عملية التواصل، وذلك بأن صاحب هذه الخطة"لابد أن يتخير من طبقات الناس، وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العلم وعارضة البلاغة ، فأنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك، ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع تدعو إليه عشرة ملوك من القيام على الآداب والتخلق

بالفضائل مع ما ينظر إليه في التراسل وتطبيق ،مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها".[19]
فاشترط شروطا يجب أن تتوفر في صاحب الرسالة:

- أن يكون من أشراف الناس .
- صاحب مروءة .
- صاحب فضائل وأخلاق.
- متمكنا من ناصية اللغة والبلاغة، ومقاصد الكلام عالما.

وفي الأغلب نجد أن لفظة الترسل ترافق النثر أكثر من الشعر، ولكن بعض الشعراء قد برعوا في النظم في هذا اللون ، ومن الألفاظ المرادفة لكلمة رسالة **كتاب**"وهو الإشارة للنص المكتوب الذي يبعث به الكاتب لغيره ومن ذلك ما جاء في الذخيرة[20] مازلت أفض كتبك وكذا في المقتبس[21].

ومن الألفاظ لفظة **صحيفة** فأحيانا تعني **الكتاب** أو **الرسالة** ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن برد الأكبر[22] ، ووردت كذلك في رسائل أبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري في معرض حديثه عن إحدى رسائله التي كتبها على لسان الأزهار في شكل مناظرة يقول:"فأول من رأى ذلك الكتاب وعاين الخطاب نواوير فصل الربيع التي هي خيرة الورد في الوطن وصاحبته في الزمن، فلما قرأته أنكرت ما فيه وبنت على هدم مبانيه، ونقض معانيه،وعرفت الورد بما عليه، فيما ينسب إليه، من استحقاقه ما لا يستحقه، واستئهاله ما لا يستأهله... **فكتبت** إلى الأقحوان والخبري كتابا منه"[23] فاستعمل الرسالة هنا بمعنى **الكتابة والصحيفة**.

والرسائل التي نقصدها بالدراسة هي التي تراسل بها الشعراء بغية التواصل وتقريب المسافات والبوح من مكنوناتهم شعرا وهذا ما يمكن إدراجه ضمن الترسل الإخواني على حد تعبير القلقشندي:فالإخوانيات جمع إخوانية نسبة إلى الإخوان والمراد المكاتبة الدائمة بين الأصدقاء[24]. وحصرها في سبعة عشر نوعا:" التهاني والتهادي والتعازي والشفاعات والشوق والاستزارة، واختطاب المودة وخطبة النساء،والاستعطاف،والاعتذار والشكوى، و استماحة الحوائج والشكر والعتاب والسؤال عن حال المريض والأخبار والمداعبة "[25]

إنها الشيء المنشئ في نسق فني جميل "في غرض من الأغراض،و يوجهه إلى شخص آخر ويشمل ذلك الجواب والخطاب"[26] هذا يعني أن هناك شروطا تستقيم بها الرسالة:

مرسل.....مرسل إليه

رسالة

ولذا عد الترسل الشعري المرآة العاكسة للذات الشاعرة وذلك بتصوير ما يختلجها بالجمع بين المتعة الوجدانية والمتعة الفنية لتحدث بذلك تأثيرا قويا في نفوس الناس "مما جعل بعض الشعراء ينجذبون إليها ويتخذونها وسيلة لتصوير عواطفهم بعد أن أصبح كثيرا من الناس يفضلون المنثور على المنظوم".[27]

وكان الأدباء الأندلسيون يطلقون لفظ رسالة على ما ينشئه الكاتب في نسق فني جميل في غرض من الأغراض، ويوجه إلى شخص آخر. وشمل ذلك الجواب والخطاب، كما كانوا يطلقون لفظ رسالة أحيانا على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجه إلى صديق أو غيره في أي موضوع.[28]

ومن الألفاظ المرادفة لمصطلح رسالة في الأدب الأندلسي لفظ كتاب، فقد دلّ هذا اللفظ منذ البداية الأولى لأدب الرسالة في الأندلس على ما كان عليه لفظ رسالة، وهو الإشارة إلى النص المكتوب الذي يبعث به الكاتب إلى غيره في أي موضوع.[29]

ومن هذه التعاريف يمكننا القول إن الترسل من أهم فنون الأدب العربي، والذي يعتبر من أهم وسائل التواصل.

–خامسا: إرهاصات الترسل الشعري

كانت إرهاصاته الأولى **في العصر الجاهلي**، إذ حفل هذا العصر بنتاج شعري غزير يحمل في طياته بذور الرسالة الشعرية وأسسها رغم اتسامها بطابع الشفوية، ، وما كان للشعر تلك الحظوة في الحفظ لتوافره على العوامل المساعدة من وزن وقافية وحركة ورواية ورواة ، فكان شغل الشعراء هو إيصال مواجعهم ومواجع قبائلهم،وامالهم وآمال قبائلهم ، ومن تلك النماذج التي تبين عناصر الرسالة معلقة زهير بن أبي سلمى[30] حين قال:

ألا ابلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم

الرسالة هنا تقوم في الأساس على:

1 – **عملية التبلغ (أبلغ).**

2– ذكر المرسل زهير المتمثل في الضمير المتصل في قوله (عني).

3–ذكر اسم المرسل إليه (الأحلاف/ذبيان).

4– ذكر اسم الرسالة صراحة(رسالة).

5– ذكر بعض من محتوى نص الرسالة(أقسمتم كل مقسم).

اللفظ الدال صراحة(رسالة)

مرسل(زهير) .....**رسـالة**.....**مرسل إليه**(الأحلاف)

محتوى الرســالة(الصلح)

ومن عناصرها كذلك التحية وتحديد مكان المرسل إليه، ومن ذلك ما ورد في قول لقيط بن يعمر الإيادي[31]:

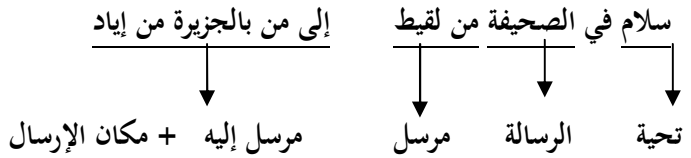

والشاعر يحدد أبرز عناصر الرسالة وهما التحية، وتحديد مكان المرسل إليه، إضافة إلى العناصر المكونة لنص الرسالة.

وهكذا ارتقى فن الترسل الشعري عبر العصور مزاحما الترسل النثري فاتحا المجال للتنافس بين الشعراء لتبيان قدراتهم الشعرية فكان هذا اللون المرآة العاكسة للنفس البشرية، والوثيقة الشاهدة على خبايا العصور ومضامينها الفنية والإبداعية، والشعر في الأساس ما هو إلا رسالة ، ولكن الفرق الذي نبحث عنه هو أن تحمل هذه الرسالة قالب الرسالة وأن تستوفي شروطها التي ذكرت آنفا خاصة الإرسال وانتظار الرد من المرسل إليه.

وفي أخريات صدر الإسلام وبدايات العصر الأموي نجد من الشعراء الذين خصوا هذا اللون بالاهتمام عمر بن أبي ربيعة فقد أورد العديد ما من الرسائل في شعره وهناك من أطلق عليها اسم القصيدة الرسالة[32]، وهي رسالة شعرية تتوافر على شروط الرسالة من عنوان وبداية وخاتمة ووصف للرسول ومواد كتابة الرسالة وغلافها وما تتحلى به[33]، من جوانب فنية.فقد تحولت القصيدة العربية على يده إلى رسالة"تبتدئ بالبسملة أحيانا وذكر اسم المرسل واسم المرسل إليه وتصف الرسول وبراعته في إيصال الرسالة، كما تتضمن ذكر الغرض من الرسالة، والختام"[34].

إنها بذلك/القصيدة رسالة قائمة على أسس التواصل الصحيحة، وهذا ما يمكن اعتباره تجديدا في بنية القصيدة الأموية على يد عمر بن أبي ربيعة فكان منشئ فن الرسالة الغزلية التي تضمنت أنواعا بدورها: الرسالة البرقية وهي رسالة موجزة وقد تكون مموهة وخاصة إذا كانت مشافهة وهي الموضوعة على لسان مناد يكلف السؤال عن بغلة تائهة لتفهم الحبيبة ، من دون أن يعلم المنادي بأنه رسول قد أدى الرسالة المشفرة[35]، وكذا الرسالة المغناة وتبعث بها الحبيبة إلى الشاعر والرسول بينهما يكون المغنية ومن ذلك رسالة الرباب إلى عمر معاتبة إياه[36]:

كتبت تعتب الرباب وقالت قد أتانا ما قلت في الإنشاد

رسالة مرسِل نوع الرسالة مغناة

وهي ترد على رسالة الشاعر :

ولقد قلت يوم مكة لما أرسلت تقـرأ الســلام علينـا

أنعم الله بالرسول الذي أرسل والمرسل الرسالة عينـا

وهي جواب عن رسالة سابقة حسب المؤشرات اللغوية كالدعاء(أنعم الله)على المرسل والرسول، وعملية التبيلغ والتواصل هنا تامة الأطراف مفعمة بالحيوية مشبعة بالكلمات الدالة على التراسل. فكان هذا اللون مبتكرا كاشفا طرق التواصل وفنون التراسل بصور جمالية مكناة أو صريحة، وقد ذكرنا آنفا مصطلح أرسل، وكتب ومن المفردات كذلك الخط وهو الرسالة والصحيفة، وغيرها"كالإمضاء الذي يكون بالبنان وبالكف،وختم الرسالة بالدموع والمداد(...) ويكون من الطيوب كالعنبر والمسك والزعفران والكافور، وذكر الغلاف المصنوع من الأقمشة الثمينة والمزين بعقود من الياقوت الصافي(...)،وما يضاف إليه من وصف يتناثر فيه القسم والاستحلاف والدعاء والتفدية والنذر وما يشوبه من رقة ولين في الخطاب"[37].

وتسلسلا نجد أن فن الرسائل الشعرية في الأندلس قد ظهر في بدايات العصر الأموي على شكل توقيعات شعرية من الملوك، وقد انتشرت هذه التوقيعات فيما بعد على شكل رسائل شعرية، فقد روي أن بعض الوفود من قريش كتب إلى الإمام عبد الرحمن الداخل يستعظم حظه منه ويطلب إليه زيادة نصيبه من المال، فوقع على ظهر رقعته أبياتا منها:[38]

شتان من قام ذا امتعاض منتضى الشفرتين نصلا

فجاب قفراً وشق بحراً مسامياً لجة ومحلا
فشاد مجداً وبز مـــلكاً ومنبراً للخطاب فصلا
ثم دعا أهله جميـــعاً حيث أنتأوا أن هلم أهلا
فجاء هذا طريد جوع شريد سيف أباد قتلا
فنال أمناً ونال شبعاً وحاز مالاً وضم شملا
ألم يكن حق ذا على ذا أعظم من منعم ومولى

وعلى الرغم من أن هذا الفن كان قليل الشيوع في القرون الأولى من الوجود العربي الإسلامي إلا أن كتب الأدب قد سجّلت لنا بعض الرسائل المتبادلة بين الشعراء والتي جاءت في مواقف شتى، مثل الدعابة والفكاهة، ورسائل الدعوة إلى مجالس اللهو وغيرها.[39]

ومن أسباب انتشار فن المراسلات الشعرية:

1- -روابط الصداقة القوية التي كانت تربط بين الشعراء وأقرانهم من أكثر الدواعي لنظم الرسائل الشعرية، فنرى ابن زيدون يتذكر أيامه الجميلة ببلنسية مع صديقه الوفي ابن عبد الله بن عبد العزيز.[40]

كما وصفت لنا المصادر الأندلسية كثير من مظاهر الصداقة والإخاء والمودة بين الشعراء، وقد ذكر ابن بسام في معرض حديثه عن أبي علي الحسن بن الغليظ وابن السراج المالقي واصفا صداقتهما حيث يقول: "فقد كان صاحبه الكثير الاتصال به والمنادمة له".[41]

ومن يعود إلى المصادر الأندلسية يجد أنه قد دارت بينهما الكثير من المراسلات الشعرية في مضامين شتى، منها الدعوة إلى مجالس الأنس، ومن ذلك الرسالة التي بعث بها الحسن بن الغليظ إلى صديقه الوفي ابن سراج:

يا خليلا صفا وكدر يومـي هل إلى الطيب في غد من سبيل؟
لو تراني أسارق اللحظ خلي وأســـقى مـــن ريقـــه المعسول
يا خليلا مثاله نصب عيني لو خلـــــونا إذن شفيت غليلي

فجاءه الرد:

يا صديقي شغلت عنك بخطب لم يكن لي بتركه من سبيل
وغدا نلتقي عليها سلافا مزة في حرارة الزنجـــبيل

إلى أن يقول:

لا عدتني زيارة منك تذكي نور عيني سنا وتشفي غليلي

ولم تقف المراسلات الشعرية بين الأصدقاء عند حدّ الدعوة إلى مجلس الأنس، فقد استخدمها الشعراء في الطلب والاستهداء والتهنئة بقدوم المولود أو بالزواج. فمن تلك الرسائل الإخوانية يتم تبادل معاني المودة والصداقة التي تسهم في توثيق العلاقات بين المتخاطبين.[42]

2- شيوع ظاهرة التشرد والترحال وعدم الاستقرار التي عانى منها كثير من أبناء المجتمع الأندلسي، فقد تعرض المجتمع في الأندلس لاهتزازات عنيفة في القرن الخامس الهجري أهمها فتنة قرطبة التي أدت إلى سقوط الخلافة، وتنازع ملوك الطوائف على البلاد، إضافة إلى دخول المرابطين في أواخر هذا القرن، وما أحدثه ذلك من أثر كبير على المجتمع بشكل عام سياسيا واجتماعيا.[43]

إن هذا الاضطراب السياسي والاجتماعي أدى إلى الترحل طلبا للرزق، فهذا عبد الله بن صارة الشنتريني تضيق به الحال يجوب بلاد الأندلس باحثا عن عمل، ثم يستقر في إشبيلية، ويعمل في الوراقة على كساد سوقها وفيها يقول:[44]

أما الوِرَاقة فهي أنكدُ حِرفة ... أغصانُها وثمارُها الحرمانُ

شبهتُ صاحبها بإبرةَ خائطٍ ... تكسو العراةَ وجسمُها عُريان

استنادا إلى ما تقدم نجد أن شعراء الأندلس كانوا يطلقون لفظة رسالة على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر على شكل خطاب موجه إلى صديق أو غيره في أي موضوع[45]، وقد وردت لفظة رسالة بصورة صريحة في غير موضع من النصوص الأندلسية، ومن ذلك ما ورد في إحدى قصائد **ابن زيدون** الموجهة من سجنه إلى **أبي الحزم بن جهور** وفيها يشير إلى كثرة رسائله الشعرية شاكيا في "حمائم شكوى" قائلا[46]:

أبا الحزم إني في عتابك، ماثـــل على جانب، تأوي إليه العلا سهـل

(مرسَل إليه)

حمائم شكوى صبحتك، هوادلا تناديك مـــن أفنان آدابي الهـدل

(موضوع الرسالة)

أفي العدل إن وافتك تترى رسائلي فلم تتركن وضعا لها في يدي عدل؟

(اللفظ الصريح)

ليواصل إلى أن يقول:

وأين جواب عنك ترضى به العلا إذا سألتـــني بعد ألسنة الحفل؟

(الرد)

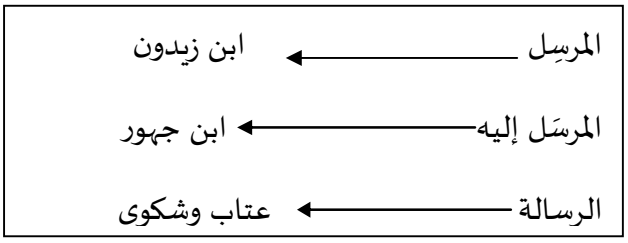

الشاعر يترسل هنا لينال العفو في رسالة شعرية مزيج بين الثناء والاستعطاف، ويبدو ذلك واضحا في عدد من الأخبار والنصوص الأدبية التي انتهت إلينا ، ومن الأمثلة الموضحة لذلك ما تبادله ابن حمديس الصقلي، مع أمية بن أبي الصلت حيث كتب إليه مراسلا[47]:

ولو أن من عظمي يراعي ومن دمي مدادي ومن جلدي إلى مجده طرســي
لكان حقيرا في عظيم الذي لـــه من الخفق في نفس الجلال فدع نفسي
ومألكة منه ملكت بهـــا المنـى وقـــد شردت عنـــي التوحـش بالأنس
وقابلت منها كـــــل معنى بغرة يلـــوح لعيـــن الوهم في دهمة النفس
كأني في روض أنـــزه ناظري جليـــل معانـــيه يدق عـــن الحس
مقلت بعين منه خط ابن مقـلة وقص على سمـــعي الفصاحة من قس
وخفقت عليه عين سحر تصيـبه فصـــــيرت تعويذي لـــــه آية الكرسي

المتأمل لهذه الأبيات يجد أنها تستوي شروط الرسالة كاملة **بدءا من المرسل والمرسل إليه وسيلة الكتابة إلى طريقتها ، مضمونها الخاتمة، والرد الذي رد به المرسل إليه**، إذ يقول أمية بن أبي الصلت[48]:

ولم تهد نحوي الروح منه إلى الأسى ولكن نفخت الروح في ساكن الرمس

فرسالة ابن حمديس المرسل كانت بمثابة إعادة الروح أي الحياة بالنسبة إلى أمية المرسل إليه، ففي التواصل إذن وصل وتقليص مسافات وبعث لدفق الحياة الشعورية طبعا، ليواصل قائلا:

وما روضة بالحزن جيدت بواكف من المزن محجوب به حاجب الشمـــس

سرى زجل الأكناف حتى تحلبت مدامعه بالري في تربها اليبس
تمر بها ريح الجنوب عليلة فتبعث أنفاس الحياة إلى النفس
بأبدع من خط ولفظ تداعيا بذي الحسن في تلك اليراعة والطرس
كأني من ميماته مرتشف حروف شفاه عاطرات اللمس لعس
بعثت به أنسي وقد كان عاريا فلا غرو أن أسميته باعث الأنس
وإني أن عارضته في رويه كملتمس نيل الكواكب باللمس

فقد نسج أمية على منوال ابن حمديس في الوزن والقافية، فبين كل منهما أهمية الرسالة وأثرها في النفس؛ وذلك أنها تُخرج من الوحشة وأنها أنس، فقال ابن حمديس:(وقد شردت عني التوحش بالأنس)، أما أبو الصلت فقال:(بعثت به أنسي وقد كان عاريا/ فلا غرو أن سميته باعث الأنس)؛ ولذا بات فن الترسل أمرا طبيعيا أثمر أدبا زاهرا بيّن الشاعر من خلاله إبداعه كما كان متنفسا قربت به المسافات وزالت ببلوغه الوحشة والأحزان[49].

ومما تجب الإشارة إليه أن تقاليد تبادل الرسائل الشعرية تقتضي وجوب الرد على الرسالة الشعرية المرسلة حتى إننا نجد في بعض الرسائل أن الطلب بالرد على الرسالة يأتي ضمن الأبيات المرسلة، وأحيانا نرى بعض الشعراء قد لا يتسنى له الإجابة على الرسالة لانشغاله بأمر آخر فيبعث له المرسل برسالة أخرى تذكره بوجوب الرد، وتطلب منه الجواب على الرسالة السابقة.[50]

كما نجد أن الظروف الخاصة التي كان يمر بها بعض الشعراء كانت تدفعهم إلى استخدام الرسائل الشفوية، فهذا "ابن زيدون" حين هرب من السجن، وأصبح يتجول في متنزهات الزهراء وأعجب بمناظرها الجميلة، تذكر محبوبته "ولادة" وعبر عن مدى اشتياقه لها بهذه الأبيات الشعرية التي مطلعها:51

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا

فكانت هذه الرسالة هي الوسيلة الوحيدة التي اتخذها "ابن زيدون" ليعبر بها عن حبّه واشتياقه لمحبوبته.

كما يعد عمل "ابن زيدون" الديواني من أحد الأسباب التي دعته إلى نظم الرسائل الشعرية.[52]

وأحيانا نجد المراسلات تتم عن تنقل السفراء إلى البلاد كما كتب "أبو عبيد الله البكري" إلى "ابن السقا" و"زيد بن جهور" وقد خرج رسولا إلى بادية "بن حبوس" مادحا في بيتين من الشعر قائلا:

كذا بروج السعد يتنقل البدر ويحسن حيث احتل آثاره القطر

وتقتسم الأرض الخطوط فبقعة لها وافر منها وأخـــرى لها نـــزر

وتعد هذه المجاملة من الشاعر يبين فيها مكانة السفير الرفيعة ومنزلته ببني قومه.[53]

ومن ذلك نذكر أيضا ما جاء في الذخيرة عن الشاعر عبد الملك بن غصن الملقب بأبي مروان الحجازي الذي ألف **رسالة في السجن والمسجون والحزن والمحزون** وبعث بها إلى المأمون بن ذي النون أوردها قصائد مطولات ومقطوعات[54]; ومن ذلك قوله:

أزاح الدهر حلو الماء عـــني على ظمــأ و أسقاني زعاقـتــه

وبالمرجو إن أظفر به مـــــن رضا المأمون يحلي لي مذاقـــه

وناس لفني بهـــــم شقـــاء ألمّ فزم في ســـاقي سبـــاقـــه

ولم يك لي بذاك العير عـــير ولا بقطيــع ذاك الذود ناقـــة

وربما استحال الســـعد نحسا فذاق المعتـــدي ممـــا أذاقـه

وأعمى عين أهدى من قطاة وشد بمثل مفحصهـــا وثاقـه

إذا صار الهـــلال إلى كمـــالٍ وتمّ بهاؤه فأرقب محـــاقـــه

وإنّ عبوس هذا الدهـــر يأتي على أثر البـــشاشة والطّـلاقه

أضاع الدهـــر مني علق فـهمٍ إذا نظـــــر المميّز منه راقـــه

وأيّ فتى لتقديـــــــم الأيادي لديـه وأيّ عبـــــدٍ للعتاقـــه!

وقوله:

وخلٍّ يسلّيني على بعد داره ويكشف من كرب المشوق المتيّم

ودادي موقوفٌ عليـه وخلّتـي وفكري مشغـولٌ بـه وتوهمي

مرسَل إليه

على أنني من ضيق سجني وحيلتي بليت كما حدّثت عن حفش أيّم

أُجانب فيه ذكر خلّي كـــــرامةً وأخجل من طيف الخيال المسلّم

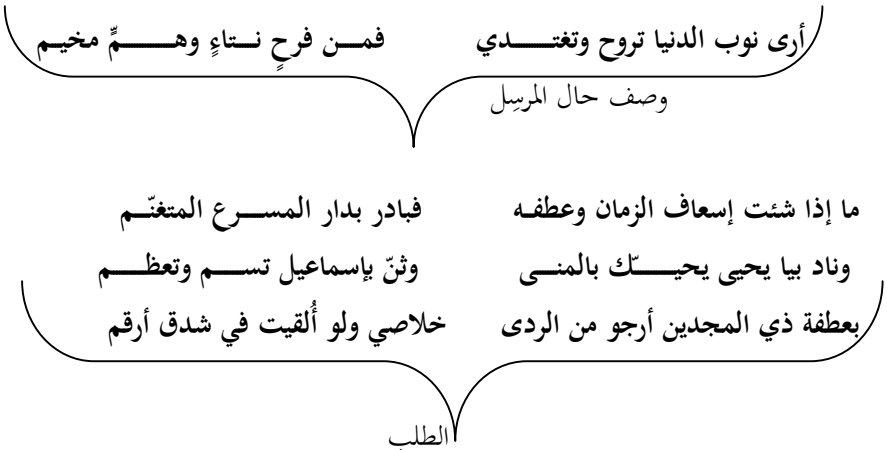

ومن طرائف الترسل الشعري :

الرسالة الشعرية بين أبي عامر البماري[55] وأبي جعفر التجاني[56]والقصة مفادها أنه "أخبر عن نفسه أنه كان يؤدب بمصر القرآن وبين يديه تلميذ وسيم، فمر به أبو جعفر التجاني الأندلسي، فألفاه يتناوم، والتلميذ قد قام عنه، فأخذ التجاني سحاءة وكتب فيها هذه الأبيات وخلاها بين يديه:

يا نائمًا متعمداً إبصار طيفِ حبيبهِ
هو جوهرٌ فاثقبه إن نَّ الطيبَ في مثقوبه
أو ركّبني ظهرَه إن لم تقل بركوبه

فلما قرأها البماري علم أنها للتجاني فكتب تحتها كرد على كتابه:

يا طالباً أضحى حجا بٌ دونَ ما مطلوبه
لو لم يكن في ذاك إث مٌ لم أكن أسخو به
إنـــي أغارُ عليه مـــن أثوابـــه ورقيـــبه

وهذا اللون قد يدخل أيضا في التغزل بالغلمان في الأندلس وهو لون غزلي جديد عرف طريقه بصورة ذائعة في الأندلس لم تعهد في الشعر العباسي ومرد ذلك الهيبة والدين،أما في الأندلس فمرد ذلك حياة اللهو وانتشار أسواق الجواري والغلمان[57].

الخلاصة:

-أن الرسالة لا تمس المنثور فقط فهي قد تحمل معنى الخطاب لأنها خاضعة لسياق الحديث ومؤثراته ومؤشراته فقد تكون قطعة نثرية مثلما قد تكون شعرية يدبجها الشاعر في نسق فني ضمن غرض من الأغراض

-الترسل إذن هو ترجمة ما يدور في الذهن من كلام وترجمته إلى كتابة، سواء أكانت على شكل شذارات شعرية أم نثرية.

-الخطاب الشعري رسالة قائمة على أسس التواصل الصحيحة، وهذا ما يمكن اعتباره تجديدا في بنية القصيدة الأموية على يد عمر بن أبي ربيعة فكان منشئ فن الرسالة القصيدة.وهي رسالة شعرية تتوافر على شروط الرسالة من عنوان وبداية وخاتمة ووصف للرسول ومواد كتابة الرسالة وغلافها وما تتحلى به

-وردت لفظة رسالة بصورة صريحة في غير موضع من النصوص الأندلسية، فقد كان الأدباء الأندلسيون يطلقون لفظة رسالة على القصائد والمقطوعات الشعرية التي ينظمها الشاعر في شكل خطاب موجه إلى صديق أو غيره في أي موضوع من موضوعات الشعر، إضافة إلى موضوعات الرسالة التواصلية الصرفة القائمة على السؤال والتودد، وتقريب المسافات.بقالب شعري جمالي هدفه التواصل وخلق جو من المتعة الجمالية لدى المتلقي.

هوامش:

[1]- ابن وهب الكاتب، أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم(ت 335هـ)، :**البرهان في وجوه البيان**،تح حقي محمد شرف، مكتبة الشباب القاهرة، 1969، ص192

[2]- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم، (ت.71هـ)، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، ط،1.1997،ج3،مادة رسل.

[3]- الفيروز أبادي(817هـ)، **القاموس المحيط**، ضبط وتوثيق يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر بيروت، ط2003،1ص905.

[4]- ابن فارس، أبو الحسين بن فارس بن زكريا،(ت395هـ) **مقاييس اللغة**، ج2، ص393/392

[5]- فايز عبد النبي فلاح القيسي، **أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري**، دار البشير، الأردن، ط1، 1989،ص77وما بعدها.

[6]- المرزوقي(أبو علي احمد بن محمد بن الحسن)،(ت 421هـ) ، **شرح ديوان الحماسة** ، ج1، ص18.

[7]- جعفر آجورلو، **الترسل في العصر الجاهلي والعصر الأموي**، موقع ديوان العرب، تاريخ النشر:19/نوفمبر/2010، تاريخ الزيارة:2020/02/28، diwanalarab.com

[8]- المقداد محمود، **تاريخ الترسل النثري عند العرب في الجاهلية**،ص 122-123.

[9]- قدامة بن جعفر،(ت 337)، **نقد النثر**، تح طه حسين، دار الكتب المصرية،دط، ص09.

[10]- ابن طباطبا،أبو الحسن محمد بن أحمد، (ت 322هـ)، **عيار الشعر**، تح طه حجازي، ومحمد زغلول سلام، القاهرة، 1956، ص5.

[11]- القلقشندي، أحمد بن علي، (ت821هـ)، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، ج1922،1،دار الكتب المصرية،القاهرة، ص54.

[12]- ابن بسام،أبو الحسن علي الشنتريني،(ت542) **الذخيرة في ذكر محاسن أهل الجزيرة**، تح سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، دت، ق1م1ص11.

[13]- ابن وهب، **البرهان في وجوه البيان**، ص191.

[14]- أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله، (ت395هـ)، **الصناعتين**،تح علي محمد البجاوي،ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، 1971، ص161/136

[15]- ابن بسام: **الذخيرة**، ق1م1ص14/11.

[16]- ابن طباطبا، **عيار الشعر**، ص12.

[17]-المرجع نفسه،ص12

[18]-ابن خلدون، (ت 808هـ)، **المقدمة** ، تح، عبد الله محمد الدرويش ،ج1، ط1، 2004، دار يعرب، دمشق، ص429.

[19]- ابن خلدون، **المقدمة**،ص247.

[20]- ابن بسام :**الذخيرة**،ق3م1ص198/197

[21]-الحميدي، أبو عبد الله بن أبي نصر محمد بن فتوح(ت 488هـ)، **جذوة المقتبس**، دار الغرب الإسلامي، تونس ،ج2، ص389.

[22]- ينظر: **الذخيرة**، ق1م1ص112.

[23]- العودة إلى **البديع** ص59/58.

[24]- القلقشندي، المرجع السابق،ج8،ص126.

[25]- المرجع نفسه،ج9، ص5.

[26]-فايز عبد النبي القيسي، **أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري**، ص78.

[27]- فوزي سعد عيسى، **الترسل في القرن الثالث الهجري**،دار المعرفة الجامعية، 1991،ص35.

[28]ينظر: فايز عبد النبي فلاح القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار النشيد، ط1، 1409 هـ/1989م، ص.77-78.

[29]ينظر المرجع السابق، ص.80

[30]- محمود المقداد، **الترسل في الأدب العربي**، الموسوعة العربية، دمشق ، المجلد السادس، ص 325.، -arab ency.com.sy، تاريخ الزيارة 2020/03/12.

[31]- لقيط بن يعمر الإيادي(ت380 ق هـ)، **الديوان**،شرح وتحقيق، محمد التونجي، دار صادر، بيروت،ط1998،1،ص72.

[32]-عزمي الصالحي، محمد ربيع، **القصيدة الرسالة في شعر عمر بن أبي ربيعة**، مجلة حروف، تصدر عن مؤسسة السياب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، لندن، العدد1، ،أو مجلة كلية الآداب جامعة طنطا، العدد22/ 2010،.

[33]- المرجع نفسه.تعد القصيدة لرسالة لون من ألوان التواصل بين الشاعر وحبيبته، وهي عبارة عن دعوة للقاء والتواصل، مع هيئة الرسالة وتقاليد كتابتها.

[34]-عزمي الصالحي، نجود الحوامدة، **تجليات في الشعر الأموي،مقاربات نقدية**،أمواج للنشر والتوزيع، عمان، الأردن2004، ص33

[35]- عزمي الصالحي، محمد ربيع، **القصيدة الرسالة في شعر عمر بن أبي ربيعة**، مجلة حروف، مرجع سابق.

[36]-المرجع نفسه، ص36.

[37]المرجع السابق، ص37.

[38] - ابن الآبار (عبد الله بن محمد بن عبد الله القضاعي)، الحلة السيراء، تح:حسين مؤنس، دار المعارف، ط3 ، القاهرة، 2013،ج2، ص.39-40.

[39]ينظر: أبن الآبار، الحلة، ج2، ص.129

[40]ينظر، المرجع نفسه، ص.129

[41] ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة،ت: سالم مصطفى البدري،1998،دار الكتب العلمية،بيروت، م2، ص.871.

[42] ابن بسام: المصدر نفسه، ص.871

[43] سعاد عبدالله أبو ركب: الرسائل الشعرية في الأندلس في القرن الخامس هجري، إشراف الدكتور فايز القيسي، جامعة مؤتة، 2008، ص.118

[44] المرجع نفسه، ص.128

[45]– فايز عبد النبي القيسي: **أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري**، ص78

[46]– ابن زيدون،(ت)، شرح وضبط كامل كيلاني، وعبد الرحمن خليفة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط1، 1932. **الديوان**، ص15

[47]– ابن حمديس الصقلي، **الديوان**، دار صادر بيروت ،لبنان، القطعة 354،ص552–553.

[48]–أمية بن أبي الصلت الأندلسي، **الديوان**، تح عبد الله الهوني، دار الأوزاعي، الدوحة، قطر، ط1، 1990، ق99، ص86.

[49]– ينظر:ابتسام دهينة، **التصوير الفني في شعر أبي الصلت** ، ،مركز الكتاب الأكاديمي الأردن،ط2018،1،ص 99–100.

[50] ابن زيدون، ديوان عبد المجيد بن عبدون البابري (الشعر والنثر) مع دراسة لأدبه، إعداد وتحقيق سليم التنير، دار الكتاب العربي، دمشق، ط1، 1988، ص.132–133

[51] ابن زيدون: الديوان، ص.139

[52] إحسان عباس وآخرون: دراسات في الأدب الأندلسي، ص.162

[53]سعاد عبد الله أبو ركب، الرسائل الشعرية في الأندلس في القرن الخامس الهجري، ص.32

[54]– ينظر: ابن بسام، **الذخيرة**، ق3م1ص332.

[55]– ينسب إلى بادية بمار اشتهر بالأدب و الظرف، سكن مصر ينظر:**الذخيرة**،ج3،ص529.وينظر:**نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب**، دار الكتب العلمية، بيروت، ج2،ص 110.

[56]– المقري، أحمد بن محمد التلمساني (ت)، **نفح الطيب** ، ج2/ص325.

[57]– ابتسام علي دهينة، **التصوير الفني في شعر أبي الصلت** ، ص92.وينظر:مصطفى الشكعة ،**الشعر والشعراء في العصر العباسي** ، دار العلم للملايين،بيروت،ط1975،2،ص187. وينظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي،دار المعارف مصر،ط2،ص121.